

قراءة في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون ت 215هـ

إنصاف محمد المومني*

ملخص

تتناول هذه الدراسة كتاب "النمر والثعلب" للكاتب سهل بن هارون ت 215هـ "هذا الكتاب الذي يعد نموذجاً نثرياً فريداً؛ إذ جاء بأسلوب القص على لسان الحيوان، إلا أنه ظل طي الكتمان إلى وقت قريب حتى عثر على مخطوطه المهيبي في أواخر سبعينيات القرن الماضي، ولعل هذا هو السبب وراء قلة الدراسات التي تناولت هذا الكتاب. وتسعى الدراسة إلى تقديم قراءة جديدة لهذه القصة، محاولة تلمس الدوافع والمؤثرات المختلفة التي كانت وراء إنتاجها. الكلمات الدالة: سهل بن هارون، كتاب، النمر والثعلب.

المقدمة

وقفه مع الكاتب والكتاب

في عصر استقرت فيه الدولة الإسلامية، واستتبّت أمور الحكم، ودان الأعداء بالولاء والطاعة، وأمنت الثغور، وعمّ الرخاء جوانب الحياة المختلفة، وتهيأ للدولة الإسلامية خلفاء وجّهوا جلّ اهتمامهم وعنايتهم للثقافة والعلم والعلماء، وأصبحت قصورهم مجالس علم وأدب، وفتحو الأبواب على مصراعها لكلّ عالم وأديب ومبدع، وانفتحو على الحضارات والثقافات الأخرى ينهلون من ثرواتها وجواهرها الأدبية، فترجم للعربية ما ترجم من أمهات الكتب من الحضارات واللغات الأخرى، وأصبحت المدن العربية - كبغداد والبصرة - منارة للعلم والعلماء، وأصبحت دور العلم مجتمع الناس، وحظي العلماء والأدباء والكتاب خاصة بمنزلة مرموقة، وشارك أبناء الأمم المفتوحة، من غير العرب، في صنع الحضارة العربية الإسلامية، بعد أن اتقنوا العربية إنقائاً تاماً، فترجموا أمهات الكتب من ثقافتهم ولغاتهم إلى العربية، وألفوا كتباً بالعربية متأثرين بثقافتهم الأولى.

في ظلّ هذه الظروف نشأ الكاتب (أبو محمد سهل بن هارون بن راهبون، الفارسي الأصل، قيل إنّه من أهل دسْتَمِيسَان، وهي كورة بين البصرة وواسط الأهواز، ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة، فنهل من ينابيع العلم فيها، ثم غادرها إلى بغداد، فعمل كاتباً بين يدي يحيى البرمكي ثم الرشيد، وفي عهد المأمون صار قتيماً وخازناً على دار الحكمة، وظلّ فيها

إلى أن توفي (215هـ) (الجاحظ، د.ت.، الحموي، 1991، الصفدي، 1982) وكان أديباً كاتباً شاعراً حكيماً شعوبياً، قال فيه ابن النديم: (1996) (كان شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة)، وكان مشهوراً بالبخل، وله في ذلك أخبار كثيرة، وله رسالة في مدح البخل أرسلها إلى بني عمه من آل راهبون) (أمين، د.ت.) توفي سهل سنة (215هـ)، وله من التصانيف: كتاب (ثعلب وعفراء)، وكتاب (الهذلية والمخزومي)، وكتاب (النمر والثعلب)، وكتاب (الوامق والعذراء)، وكتاب (ندود وودود ولدود)، وكتاب (الضربين)، وكتاب (الغزالين)... وغير ذلك. (الكتبي، د.ت.)

وقد نال ابن هارون مكانة متميزة في عالم الأدب، لما امتاز به من صفات، قال عنه الجاحظ: (د.ت.) (كان سهل بن هارون سهلاً في نفسه، عتيق الوجه، وحسن الشارة، بعيداً عن الفدامة... يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخابطة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبيل قبل التكشف)، وقد انفرد كما يقول ابن نباتة:

(1964) (في زمنه بالبلاغة والحكمة، وصنّف الكتب الحسنة معارضاً بها كتب الأوائل حتى قيل له (بزرجمهر الإسلام)، وله اليد الطولى في النظم والنثر)، وقد عني في كثير من كتبه (بالقصص على لسان الحيوان، مشكلة لكتاب "كليلة ودمنة"، وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية (ضيف، د.ت.).

قصص الحيوان في الأدب العربي

الحكاية على لسان الحيوان نمط من الأنماط السردية الذائعة في الآداب القديمة، ولعل أهم ما يميزها عن غيرها من الأجناس القصصية أن الحيوان هو الذي يلعب دور البطولة فيها.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية إربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/4/6، وتاريخ قبوله 2015/10/14.

والاستبداد، حينما يكون التصريح بالرأي سبباً في إثارة حقن الملوك وسخطهم، ويستدلون على ذلك بأن معظم كتابها من العبيد والموالي، أي من المستضعفين.

لكن لا يعني ذلك أن هذا الفن مرتبط لازماً بعصور الظلم والاستبداد، إذ إن كثيراً من هذا القصص وضع لهدف تربوي تعليمي لا علاقة له بالسياسة، أو بهدف التسلية والإمتاع، أو للموعظة الأخلاقية، ويراد منها في هذه الحال البعد عن الوعظ المباشر وثقله على النفس.

الدراسات السابقة: وتجدر الإشارة هنا إلى عدد من الدراسات تناولت هذه القصة منها:

(حكايات الحيوان في التراث العربي، 1995) للدكتور محمد رجب النجار، ودراستين للدكتور قحطان صالح الفلاح الأولى بعنوان (القصة على لسان الحيوان، كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون نموذجاً 2002)، والدراسة الثانية بعنوان (الأدب والسياسة، قراءة في قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون 2011)، ولعل ما يميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة أنها جعلت نص القصة المصدر الأساسي لها ومنطلقها، وسعت لتلمس ما في القصة من رموز وخصائص فنية وتحليلها، وتوصلت لنتائجها الخاصة بها، ولم تعتمد إلى الموازنة مع مؤلفات أخرى كمؤلفات ابن المقفع كما عمدت الدراسات السابقة.

ملخص القصة

ذكر أن ثعلباً كان يعيش هو وزوجته في وادٍ منذ أمد بعيد حياة هنيئة، فمرّ به صديق له من الثعالب (طارق)، فأنكر عليه إقامته في هذا الوادي، ونصحه بالتحوّل إلى مكان آخر أكثر أمناً، خوفاً من أن يدهمه السيل فجأة، فاستشار الثعلب (مرزوق) زوجته فأبّت التحوّل عن هذا المكان؛ لأنهم يقيمون فيه منذ أمد بعيد ولم يروا سيله، وما لبث السيل أن دهمهم فجأة، فنجا الثعلب بنفسه وترك زوجته تصارع مصيرها، فحمله السيل وقذفه على جزيرة لم ير فيها أنيساً ولم يسمع حسيباً، فبات ليله قلقاً حائراً، ولما أصبح مرّ به ذئب فتعارفاً، وعلم منه أن الجزيرة خاضعة للملك (النمر)، وهي تمتلئ بالطباء وحمار الوحش، وهذا ليس من صيد الثعالب، والذئب والحيوانات الأخرى لا تستطيع صيدها خوفاً من حاكم الجزيرة (النمر) الذي يملك الجزيرة وما عليها من وحش، وما أن سمع الثعلب ذلك حتى بدأ يفكر في طريقة يحصل بها على طعامه، فأشار على الذئب أن يقابل النمر فيتلطف معه ويطلب منه ولاية في الجزيرة، يقوم الذئب على حكمها وسياستها ويشاطر النمر خيراتها، ويتخذ من الثعلب وزيراً معيناً على إدارتها، ويتردد

عرف العرب هذا الفن منذ العصر الجاهلي، سواء أكان من نوع الحكاية الفطرية الشعبية أم من النوع الأدبي الذي يضمن دلالات خُلقية وتعليمية وسياسية، فقد زخر الأدب العربي بهذه القصص، نجدها متناثرة في كتب الأمثال، والأدب، والخرافات، وأيام العرب... وغيرها، وخطا هذا الفن خطوات واسعة في العصر العباسي الأول نتيجة الانفتاح على الثقافات الأخرى، التي تفاعلت مع الثقافة العربية فلم يلبث ذلك أن أتى أكله في مختلف الميادين، ويرى محمد غنيمي هلال (1981) في دراسة للجنود التاريخية القديمة للقصة على لسان الحيوان (أن ابن المقفع في ترجمته كتاب "كليلة ودمنة" إلى اللغة العربية كان سبباً في خلق هذا الجنس الأدبي العربي، والارتقاء به كجنس أدبي له مكانته بعد أن كانت نشأته شعبية أو أسطورية. فيعدّ ابن المقفع إمام هذا الفن، ورائده في الأدب العربي؛ فقد كان (أول من نقل هذا الفن القصصي من مرحلته الشفاهية والشعبية، عند العرب إلى الأدب المدون الكتابي في أول خطوة من نوعها في تاريخ الأدب العربي القديم، عامة، والإبداع القصصي خاصة، وتزداد هذه الخطوة أهمية، إذا وضعنا في الاعتبار أن هذه هي المرة الأولى في التراث الأدبي عند العرب، التي يوضع فيها - بعد الشعر - أول كتاب قصصي مجموع على صعيد واحد) (النجار، 1995)، وحذا حذو ابن المقفع غير واحد من الكتّاب؛ فنسجوا على منواله، بعد أن أدركوا أهمية عمله، ويعد أثره في النفوس، وكان أول من لحق به سهل بن هارون، ولعل أهمية هذا الفن الأدبي يكمن في المغزى الرمزي الذي تتطوي عليه قصص الحيوان، وتكشفه أحداثها فهي (ظاهرها لهو، وباطنها حكمة)، كما يقول ابن المقفع: (1970) والحكمة فيها تتمثل في الغاية التي يرمي إليها كاتبها، فقد تكون الغاية تربوية تهدف إلى النقد الاجتماعي والأخلاقي، وذلك من خلال نقد بعض العادات والتقاليد السلبية، أو مدح بعض القيم والعادات وتأكيداها، وإما أن تكون الغاية سياسية تتمثل في تعرية الأنظمة السياسية وكشف عيوبها وما يعتريها من فساد، وليس هذا فحسب، بل قد تسعى لوضع منظومة من المبادئ والمثل السياسية والإدارية تتخذ قدوة يسير على نهجها الطامحون إلى الحق، وقد ألمح كتاب هذا الفن - كابن المقفع - إلى هذه الغاية في مقدمات كتبهم، أو في مضامينها مستعينين بالحيوان قناعاً للنقد السياسي، وقد تكون الغاية مزيجاً من السياسة والاجتماع، وهو الأغلب، إذ إن إصلاح المجتمع، يستوجب تقويم الحاكم والرعية معاً، على نحو تراعى فيه الحقوق والواجبات لكل منهما.

ورأى بعض الباحثين (أحمد أمين، د.ت وعبد الرزاق حميدة، د.ت) أن قصص الحيوان تنشأ في عهود الظلم

ولما حوى من أمثال سائرة، وأقوال مأثورة، وحكم دائرة، ويعرض للعلم والجهل، والعقل وإرشاد الناس إلى طريق الخير، وصرفهم عن طريق الشر. ويشير في قوله: (وجعلته أصلاً للعالم الأديب، والعامل الأريب) إلى الجانب الخفي وراء تأليف هذا الكتاب، والملفت للنظر أن الكاتب لم يشر في هذه المقدمة إلى الجانب السياسي، مع أن السياسة وأساليب الحكم كانت الأبرز فيه؛ فقد تناول شخصيات رئيسة في إدارة دفة الحكم، وهم: "الملك، والوالي، والوزير، وكيف يحكم الملك الحازم، والولاة المتمردون، والوزراء الأذكياء، والدهاة، والحكماء الذين يستغلون الفرص السانحة، ويتوددون إلى من هم أعلى منهم رتبة وأرفع مكانة، لتحقيق مآربهم الشخصية.

ورأى محمد رجب النجار، (1995) أن (النمر والشعلب)، يدخل تحت مصطلح (رواية الحيوان)، وأن هذا الكتاب يعد نموذجاً رائداً لرواية الحيوان في الأدب العربي الرسمي معروف المؤلف ويعمل النجار، (1995) سبب هذا التصنيف، فيقول: (لأنها من حيث الحجم رواية طويلة، ولأنها من حيث المضمون تتناول موضوعاً قصصياً واحداً ومتكاملاً، مهما تفرعت أحداثه، وتعددت شخصياته)، إلا أننا نؤثر رأي من رأى أن (النمر والشعلب) قصة أو قصة طويلة، تمييزاً لها عن الحكاية على لسان الحيوان، التي تكون قصيرة الطول، مثل حكايات (كليلة ودمنة). (الفلاح، 2002)، ويمكن القول إن هذه القصة تمتلك مقومات القصة بمفهومها الحديث نسبياً؛ لأنها تحوي كثيراً من عناصر القصة مثل: الأحداث، والشخصيات، والبيئة، والزمان، والمكان... الخ.

قراءة في القصة

يستهل الكاتب كتابه بالتحميد والتسبيح وذكر الله وآلائه، ويديع صنعه وقدرته في الكون، والشهادة بنبوة سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وإبراز مكانته وتميزه على غيره من البشر والرسول.

وأطال الكاتب في هذا الافتتاح إذ استغرق صفحة كاملة، والملفت للنظر أنه لا توجد علاقة بين أحداث القصة وما ورد في هذا الاستهلال من تلوينات الحمد والتسبيح لله والثناء على رسوله الكريم.

المقدمة: وبلي ذلك المقدمة وهي عبارة عن سبعة أسطر يخاطب بها الشخص الذي ألف له هذا الكتاب، ويدعو له فيها بالسداد والتوفيق، وهذه المقدمة على قصرها إلا أن الكاتب شرح فيها الأسباب التي دعت لتأليف الكتاب، والهدف منه، وهو عرض نموذج من الكتابة المترسلة البليغة التي تدور حول الأدب والحروب والسياسة والحيل والأمثال والحكم والمواظ.

الذئب في ذلك؛ لما عرفه عن النمر من قوة وبطش، وما زال به الثعلب حتى أقدم الذئب على مقابلة النمر وعرض عليه الأمر؛ فأعجب النمر به وعهد إليه (بمناهل الطباء) وأخذ منه العهود والمواثيق، ومضى الذئب ووزيره الثعلب إلى ولايته سعيداً مسروراً، حتى إذا دانت له الولاية وسيطر عليها، وتنعّم بخيراتها، وتغيرت حاله وحال وزيره، تنكّر لوعوده وعهوده للملك "النمر"، ولم يبعث له بشيء من خيراتها، ولما استبطأ النمر ما وعده به الذئب راسله يذكره بعهوده، فاستشار الذئب وزيره الثعلب فنصح بحسن الولاء للنمر وطاعته، لكن الذئب ظل سادراً في غيّه، فكتب إليه النمر ثانية يحذره وينذره العقاب إن هو لم يف بوعوده، إلا أن الذئب صمّ على التمرد، وشق عصا الطاعة، وردّ على النمر رداً عنيفاً، عرف منه النمر أن الذئب مصمم على الانتفاض عليه، مما دفعه لاتخاذ خطوات وإجراءات عدة لإقناع الذئب بالعدول عن موقفه هذا، وعندما تمسك الذئب بموقفه سير النمر له الجيوش الواحد تلو الآخر، إلا أن النصر كان حليف الذئب في البداية، فينهض (النمر) ويقود الجيش بنفسه بناءً على مشورة أحد وزرائه، فتدور الدائرة على الذئب ويُقتل، ويُقبض على الثعلب وزير الذئب وناصحه ومدير أموره وكاد أن يُقتل لولا أنه استرحم النمر واعداً إياه أن يضع نفسه في خدمته، فيطلب النمر من وزرائه اختبار ما عند الثعلب من عقل وحكمة، ويدور حوار بين الثعلب ووزراء النمر حول العديد من القضايا والأمور، فأعجب النمر بذكاء الثعلب وبلاغته وفصاحته وثبوت حجته؛ فيكافئه ويقربه إليه ويكرمه، وظلّ يستشيريه ويأخذ برأيه إلى أن هلك.

الكتاب، أهميته، والهدف من تأليفه

لا تكمن أهمية هذا الكتاب بأن مؤلفه (سهل بن هارون) وما عرفنا عن مكانته الأدبية فحسب بل تتأتى أهميته من جوانب عدة، فإضافة لما ذكر، فهو كتاب جاء بأسلوب السرد القصصي، فيمكن أن نقول فيه الكتاب (القصة)، وهذه القصة على لسان الحيوان، وبيّن الكاتب أهمية كتابه في مقدمته، فهو كتاب جامع شامل، يقول: (ابن هارون، 1973) (فإنني رأيت أن أصنع لك كتاباً في الأدب والبلاغة والترسل والحروب والحيل والأمثال والعالم والجاهل، وأن أشرب ذلك بشيء من المواظ وضروب من الحكم، وقد وضعت من ذلك كتاباً مختصراً موعباً شافياً، وجعلته أصلاً للعالم الأديب، والعامل الأريب، مما أمكنني حفظه، واطرد لي تأليفه).

وهذا الكلام على إيجازه، يحمل معاني كثيرة ودلالات واضحة، تبين ما يرمي إليه الكاتب من أهداف ومقاصد، فهو كتاب في الأخلاق والبلاغة والترسل، لما فيه من بيان بديع،

للكمان الذي جرت فيه أحداث القصة، فكل هذا غائب عن جو القصة. فالثعلب كان يعيش مع زوجته في الوادي، فيهمج عليهم السيل فجأة، ويجرف معه الثعلب، ويقذفه على جزيرة بعيدة، فيلتقي الذئب الذي يطلعه على أحوال الجزيرة وظروفها، فيقترح الثعلب على الذئب خطة يحصل بها الذئب على ولاية مناهل الأطباء بعد أن يأخذ منه (النمر) العهود والمواثيق، وتتغير حال الذئب؛ فيخيس بعهوده، ويتمرد على النمر ويرفض الانصياع لأوامره، على الرغم من نصيحة وزيره (الثعلب) بالالتزام بعهوده، فتدور بينهم معارك عدة ينتصر فيها النمر، ويقتل الذئب، ويقع وزيره الثعلب أسيراً. وهنا ينتهي القسم الأول من القصة -ليبدأ القسم الثاني إذ تمكّن الثعلب بذكائه ودهائه من إقناع الملك (النمر) بالإبقاء على حياته عارضا عليه خدماته، وحقق الثعلب مبتغاه وأصبح مقرباً من النمر (الملك) ونال الحظوة عنده إلى أن هلك. إلا أن حركة الأحداث كانت بطيئة، وهي في النصف الثاني من القصة - بعد مقتل الذئب وأسر الثعلب - تنعدم تماماً، إذ تتحول القصة لتصبح حواراً بين الثعلب ووزراء النمر، وهذا الحوار حول قضايا عقلية لا علاقة لها بالقصة، الهدف منها إظهار تفوق الثعلب، ورجاحة عقله، هذه حال الأحداث في القصة، اللهم إلا في مرحلة الصراع بين النمر والثعلب، فقد تسارعت الأحداث قليلاً، لتتطور وتصل إلى النهاية.

الشخصيات

أشخاص القصة قليلون، فالقصة في مجملها تدور حول ثلاث شخصيات رئيسة، هي: النمر (الملك)، والذئب (الوالي)، والثعلب (الوزير).

وهذه الشخصيات في حقيقتها شخصيات إنسانية تتقن بالشخصيات الحيوانية الرمز؛ إذ إن كثيراً من قصص الحيوان ينحو منحى الرمز في معناه اللغوي العام، كما يقول محمد غنيمي هلال: (1981) (فالرمز فيها معناه أن يعرض الكاتب أو الشاعر شخصيات وحوادث، على حين يريد شخصيات وحوادث أخرى عن طريق المقابلة والمناظرة، بحيث يتبع المرء في قراءتها صور الشخصيات الظاهرة، التي تكشف عن خمر شخصيات أخرى، تتراءى خلف هذه الشخصيات الظاهرة).

فهذه الشخصيات لم تأخذ من الحيوان إلا الاسم (الرمز)، أما تصرفاتها وأعمالها فهي شيء مختلف، فهذه الشخصيات تتصرف وتفكر كما يفكر البشر، وتتكلم وتكتب كما يفعل البشر تماماً، إنها تقول الحكم وتضرب الأمثال وتستشهد بالآيات القرآنية والشعر، وهي تخاطب الشخص بلفظة (المرء) أو (الإنسان)، والنمر عندما ولّى الذئب (مناهل الأطباء) أمر كاتبه

لكن من هذا الشخص الذي كتب له سهل هذا العمل؟ فهو غير معروف، ولا يرد في الكتاب ما يشير إلى شخصه، وقد اختلف الدارسون حول هذا، فهناك من رأى أنه ألف القصة ليحيى البرمكي أو لواحد من أفراد أسرته، أو لهارون الرشيد بعد نكبه البرامكة بغية تقوية مكانته لديه، ومنهم من رأى أنه كُتب للمأمون، وهناك من استبعد أن تكون القصة مؤلفة للرشيد أو للمأمون أو البرامكة؛ لأن العبارات التي يتوجه بها سهل إلى من ألف له قصته تخلو من الصراعة والإطباب في الثناء والتحميد الذي درج عليه مؤلفو تلك العصور في مخاطبة الخلفاء والوزراء

(ابن عبد ربه 1942) ورأى بعضهم أن هذه القصة جاءت كصدى لقصة أبي مسلم الخراساني مع أبي جعفر المنصور، وقد يكون اسم الحاكم (النمر) في هذه القصة (المظفر ابن منصور) الباعث وراء هذا الاعتقاد

(شلق، 1992) إلا أننا نميل إلى قول من قال: (بأن هذه القصة تمثل الثالث الحاكم آنذاك، فالنمر رمز للخليفة الشرعي، والذئب المتمرد رمز لكل خارج على طاعة الخليفة من الولاة، والثعلب الحكيم رمز لطبقة البرامكة والوزراء والكتاب من الفرس، الذين يسعون للعمل في دواوين الخلافة العباسية) (النجار، 1995).

ثم يدخل المؤلف في قصته مستهلاً بقوله: " ذكر أن ثعلباً يقال له: (مرزوق)، ويكنى أبا الصباح أقام في وادٍ لم يكن فيه غيره. وكما نلاحظ فإن الكاتب بدأ بالفعل (ذكر) ثم الشخصية، أما المكان فلم يحدد بدقة، فهو (وادٍ) لا يسكنه إلا الثعلب وزوجه.

الأحداث

تتسلسل القصة تسلسلاً محكماً، ترتبط فيها الأحداث برباط السببية، وتتدرج من الضعف إلى العقدة ثم تصل إلى الذروة ليأتي بعد ذلك الحل بأسلوب شائق أخاذ، وهي تسير بخط مستقيم، فلا تتخللها حكايات فرعية، خلا حكاية صغيرة جاءت في معرض حديثه عن الجاهل، وهي تجري على النحو التالي: (فكان كطائر، كان أكله السمك، فنشب بسمة في جباله صياد، فلم يزل يضطرب حتى تخلص. فكان بعد ذلك لا يرى سمكة إلا ظن أنه جباله منصوبة؛ فترك الصيد حذراً حتى مات هزلاً وضراً). (ابن هارون، 1973) وضرب هذه الحكاية مثلاً للجاهل الذي يستعمل الحذر في غير موضعه. والكاتب يركّز على موضوعه الرئيسي فلا يخرج عنه أبداً؛ فلا نجد مثلاً حديثاً عن مجلس الملك وما يحقّه من انفعالات، أو وصفاً للطبيعة، أو تحليلاً لشخصياته وأفكارهم، أو تعليلاً لتصرفاتهم، أو وصفاً

استنّ سنة قبيحة، وحاول النمر مفاوضة الذئب سعياً لعودته إلى جادة الصواب وحققاً لدماء الجميع، إلا أنّ الذئب تَمَادى في موقفه، مما دفع النمر للتحرك والدفاع عن سلطته فجيش الجيوش، وبدأ الصراع العنيف الذي انتهى بمقتل الذئب على يد النمر، وأسر الثعلب.

امتاز **الثعلب** بالحكمة، والذكاء، والدهاء، فبذكائه استطاع إقناع الذئب بطلب الولاية من النمر، رغم تردد الذئب وتخوّفه من النمر، وبالذكاء والحكمة استطاع النجاة من بطش النمر حين وقع في قبضته بعد سقوط الذئب، وبهذه الصفات تمكّن من الفوز بإكرام النمر وتقريبه منه وأن يظلّ مستشاره حتى هلك. لكن لا يعني ذلك أنّه لا تظهر بعض الجوانب السلبية في شخصية الثعلب، فالثعلب انتهازى، يقدّم مصلحته على كل شيء، يميل حيث مال الزمان، فقد ظلّ إلى جانب الذئب ما بقي واقفاً ذا شوكة، وعندما دارت على الذئب الدوائر وقُتل، لم يجد في نفسه حرجاً أن ينتقل إلى جانب (النمر) وأن يخدمه بالهمة نفسها التي خدم بها الذئب على أكمل وجه، مع أنّه ظلّ إلى جانب الذئب ونصحه مراراً أن يبقى على عهده للنمر، إلا أن الذئب ظل على موقفه. وقد يعكس لنا هذا الأمر جانباً من الحياة السياسية في ذلك العصر، وقد اضطربت الأمور واهتزت ثقة الحاكم بالولاة، وأصبح كل لا يفكر إلا في مصلحته، والحكيم هو الذي يدور مع الزمان حيث دار. وقد رأى بعض الباحثين (أنّ الثعلب صورة لسهل بن هارون كاتب القصة، الذي أشارت المصادر إلى أنّه كان يخدم البرامكة، فلما ضربهم الرشيد تحوّل سهل إليه يؤدي له الخدمات نفسها التي كان يؤديها للبرامكة، وبنفس النشاط والهمة) (عوض، 2002)، وقلة وفائه تجلّت أيضاً في موقفه من زوجته، فقد عاش معها في الوادي ولم يكن به غيرهما، وكان يستشيرها في أمور حياتهما ويأخذ برأيها، فلم يتحوّل عن الوادي بعدما نصحه صديقه الثعلب (طارق) بذلك خوفاً من أن يدهمهم السيل؛ لأنّها رفضت التحوّل، وعندما دهمهم السيل لم يفكر بها، وإنما نجا بنفسه، ولم ترد على خاطره طوال القصة.

الذئب: جحد، ومغرور، وطماع، مع أنّه وصف نفسه للثعلب في أول لقاء لهما بأنّه مسالم ومغلوب على أمره، لا يستطيع مخالفة النمر بالرغم من أنّه رافض لسيطرة النمر على الغابة ووحوشها، وكان يرى في النمر الحاكم الظالم، إلا أنّه لم يكن أفضل من النمر حالاً؛ فعندما قويت شوكته جهر بمخالفة النمر والتمرد على سلطته، بعد أن كان يخشى مقابلته ومخاطبته قبل ذلك، ولولا تشجيع الثعلب له لما حظي بالولاية أصلاً، لكنه شخص جاحد ناكراً للمعروف، وما أن أحسّ قوّته حتى نسي نفسه وتمرد على سادته، وتكرّر لعوده ونسي ما

أن يجبر هذا العهد، فيقول له: (اكتب له يا غلام عهده على مناهل الظباء)، وفي مفاوضات النمر مع الذئب يخوّفه من الآخرة والحساب الإلهي لمن يوقد الفتنة، وحين يستشير الثعلب في حرب القائد "خداش بن عضاض" الذي أرسله النمر لمحاربته، ينصحه الثعلب أن يستخير الله، وهذه كلها ممارسات تتصل بالبشر وعالمهم. (ابن هارون، 1973).

هذا إضافة إلى عدد من الشخصيات الثانوية في القصة تمثلها شخصيات:

- زوجة الثعلب مرزوق، والثعلب (طارق) صديق مرزوق، وزراء النمر، قائد الجيش، بقية الذئاب.

الشخصيات الرئيسية وأهم ملامحها:

أما الشخصيات الرئيسية في القصة فأهم ملامحها هي:

النمر: ملك الجزيرة، إذ يبدو حازماً، ومتعلّلاً، وحكيماً، يشاور وزراءه في أمور الجزيرة، ولا يستبدّ برأيه، بل أخذ بآراء وزرائه في مواجهة الذئب وتمرده، مع أنّ بعض الباحثين وصفه بالطاغى (ضيف، د.ت)، والحق أن هذا الوصف لا مبرر له، ولم يظهر منه في القصة ما يتفق وهذا الوصف اللّهم إلا أن كان منطلق هذا ما ورد على لسان الذئب في بداية القصة بأنّ النمر شرس الطباع، ضيق الخلق، على ما قد عُرف عن صفة النمر، فلا يسوّغ لنا هذا القول أن نصف النمر " بالطاغى"؛ لأنّ هذا القول صدر من مبغض مغرور، وما كشفت الأحداث يثبت عكس هذا، فالنمر كان حكيماً حليماً في مواجهة تمرد الذئب، ولم يبدأ في قتال الذئب إلا بعد أن يئس من صلاحه ورجوعه إلى جادة الصواب، ويعد مفاوضات طويلة كشفت حقيقة نوايا الذئب ومطامعه، وقد يكون النمر شديداً في حكمه على الذئاب، فأصابها الجوع والهزال، إلا أن هذا يكشف حكمة النمر ومعرفته بطبيعة الذئاب، ولوم أخلاقها، وجودها النعمة، ودليل ذلك ما حصل من الذئب إذ تنكّر للنمر وأنكر حسن صنيعه معه. وليس أدل على جلم النمر وحكمته من عفوه عن الثعلب بعد أن وقع في أسره، مع أنّ الثعلب كان مع الذئب ناصحه ومستشاره المقرب، فأبقى على حياته، وأحسن إليه وأفاد من خبرته وذكائه في إدارة أمور مملكته.

الثعلب: وهو البطل الذي تدور حوله القصة؛ لأنه كان محور الأحداث فيها، وأسهم بشكل ملحوظ في تطوّر القصة وتناميها، فقد كانت الحيوانات في الجزيرة مستسلمة لسلطان النمر قبل قدوم الثعلب، وعندما ظهر الثعلب في الجزيرة غير هذا الحال، فأقنع الذئب بطلب ولاية من النمر، وساعده في الحصول عليها، وكان هذا بداية تنامي الأحداث؛ فاندفع الذئب بغروره وطمعه، وتمرد على سلطة الملك (النمر)، وهو بذلك

كان عليه قبل الولاية وهو يتنزل للنمر، يقول: (أيها الملك، إني لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك، فوجدته خالياً من صالح الأعوان وثقات الخدم ولما رأيت الملك كثير الكلف، عظيم المؤن، ربح العناء، جزل العطاء، وليس له من يعينه على مؤنه، ويكفيه الهم من عمله، ندبت نفسي للذي رأيتني أقوى عليه من حسن السياسة، وضبط الناحية التي أتولاها، وردّ المنفعة على الملك منها). (ابن هارون، 1973)، فالغرور والطمع في الجاه والسلطة دفعاه إلى التمرد ومن ثم إلى نهايته التي يستحقها، حتى إنّه لم يستمع لنصائح وزيره ومدير شؤونه

(الثعلب)، بل صمّ أذنيه عن كلّ صوت إلا صوت غروره وطموحه المبالغ فيه، فوقع في شرّ أعماله، وانتهت حياته على يد النمر (الملك).

والشخصيات في مجملها بعيدة عن التناقض، تبدو منفصلة مع الأحداث، تعمل على نموها وتطورها، من خلال عنصر الصراع بنوعيه: الخارجي مع بعضها البعض، والداخلي في ذوات الشخصيات، وكان الصراع الخارجي بين الملك (النمر) وواليه (الذئب) هو الصراع الأبرز في القصة، فيه تسارعت الأحداث وتنامت القصة لتصل إلى الذروة ثم إلى النهاية، وتجلى في القصة غير هذا الصراع المادي صراع داخلي يضطرم في نفس الذئب؛ فهو لا يستطيع التخلي عن غطرسته وسلطانه أولاً، ولا يستطيع مواجهة النمر ثانياً، وتجلى صراع داخلي أيضاً في نفس (النمر)، وإن لم يكن بقوة الصراع في نفس الذئب، فهو لا يريد إشعال حرب في الجزيرة تأتي عليها، وينفق عليها المال الكثير من ناحية، ولا يستطيع أن يتخلى عن هيبته في نفوس رعيته، ويفسح المجال أمام الذئب ليكون قوة لغيره من الولاة، ويفقد النمر سلطته من ناحية ثانية، وإضافة إلى هذا ظهر صراع فكري بين (الذئب والثعلب)؛ لاختلافهما في منهج التفكير، وأكثر ما تجلّى هذا الاختلاف في موقف الثعلب من تمرد الذئب، ونصائحه له، لكن الذئب لم يأخذ بهذه النصائح (ابن هارون، 1973).

ومما يستوقفنا في هذه القصة، ويظهر البراعة الفنية فيها أسماء الشخصيات، ودلالاتها الرمزية، فالثعلب (مرزوق) وهو كذلك في القصة، فقد رزق السلامة منذ بداية القصة، فكان يعيش بسلام مع زوجته في الوادي، ورزق السلامة من السيل، ومع الذئب فهو وزيره وكاتبه، ورزق السلامة من القتل بعد أن قُتل الذئب، وعاش مع النمر خليلاً مقرباً ومشيراً، ولعلّ أهم ما رزقه الثعلب هو العقل؛ فقد كان العقل سبب رزقه، فبالعقل استطاع إقناع الذئب بطلب الولاية من النمر ورزق بذلك الوزارة، وبالعقل خاطب النمر في فورة انتصاره على الذئب

ووهبه السلامة وحظي بالمنزلة الرفيعة في بلاطه حتى هلك. أمّا الذئب، فهو (مكابّر بن مساور)، ولا أدلّ من هذا الاسم على شخصية الذئب، فقد كتب إليه النمر في إحدى رسائله: (من ملك الملوك المظفر بن منصور إلى الطاغية الشبيه باسمه مكابّر بن مساور) (ابن هارون، 1973). أمّا النمر، فهو (المظفر بن منصور)، وحقا كان النصر حليفه في سياسته في الجزيرة، وفي صراعه مع الذئب، ولم يكن هذا الاهتمام مقصوداً على الشخصيات الرئيسة دون الثانوية، فالثعلب صديق مرزوق الذي زاره في الوادي، وحذّره من السيل (طارق) وهو حقاً طارق ولم يظهر في مكان آخر من القصة، أمّا أسماء قادة جند الملك النمر اللذين أرسلهما لردع الذئب، فهما على التوالي (وثّاب بن المُنْتَهَش) و(خدّاش بن عضاض)، ففي هذه الأسماء تتجلى القدرة الفنية بأبهى صورها، فالتوافق بين اسم القائد ووالده لكل منهما في غاية الروعة، ولا يغيب عنا الصيغة الصرفية لهذه الأسماء، التي توحى بالقدرة الحربية الفائقة لهذين القائدين، ولعل فشل (الوثّاب) في معركته مع الذئب استوجب أن يبعث النمر بقائد آخر يفوق القائد الأول قوة فأرسل له (خدّاش)، وفي وصف الملك (النمر) لهذين القائدين تعبير عن هذا الدور (ابن هارون، 1973)، ولا يعقل أن يكون اختيار سهل لهذه الأسماء مجرد صدفة، بل هو أمر مقصود إذ أضفت الأسماء على القصة قيمة دلالية وجمالية معاً، وقد أدّت أيضاً وظيفة سردية؛ فأغنت الكاتب عن كثير من الوصف للشخصيات.

أمّا الشخصيات الثانوية التي لم يسمها الكاتب، فذلك أيضاً مقصود؛ ففور هذه الشخصيات في القصة كان محدوداً أو ضعيفاً؛ فزوجة مرزوق لم تظهر إلا في بداية القصة، وجرفها السيل وماتت، فلو أطلق الكاتب عليها اسماً لأثار أسئلة عدة، أمّا وزراء الملك (النمر) الذين استشارهم في أمر الذئب، وعلى الرغم من أنّه استمع إليهم وأخذ برأي بعضهم، إلا أن الكاتب أعطاهم أرقاماً بدل الأسماء، ولعل لهذا الأمر دلالة فالكاتب أخذ بأرائهم لدورهم السياسي فهم (وزراء)، بالتغاضي عن حنكتهم الحربية أو ثقته بهم، وهذا موقف يحسب للملك (النمر) فهو يستشير وزراءه في أمور دولته، ولا يقطع أمراً دونهم، وهذا الموقف ثابت لا يتعلّق بشخص هؤلاء الوزراء.

ولم ينس الكاتب أن يصوّر نفسيات الشخصيات وعواطفها، وتصوير أبعادها المختلفة، والخيال ظاهر في هذه القصة، فالقصة في إطارها العام لا تعدو أن تكون خيالاً، أو خرافة كما يرى ابن النديم، (1996) وقد رأى البعض (أن الخيال هو الذي أضفى على القصة عنصر التشويق، من خلال إدهاش المتلقي بعدم واقعية الأحداث والشخصيات) (النجار، 1995).

له، وأقام بين يديه... فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده (ابن هارون، 1973)، وعبارات السرد قد تطول أحياناً، عندما يستدعي الموقف ذلك، مثل: (فخرج الذئب إلى عمله، واستخلف الثعلب، وأحلّه محل الوزير الكاتب، فلما صار إلى تلك الناحية كمن الذئب على شريعة الطريق، ورأى له الثعلب، فأقبلا يصيبان كل يوم حاجتهما، حتى صلحت أحوالهما، ورقّت أوبارهما...، وخاس الذئب بعده، وأخلف وعده، حتى اشتدّ ذلك على النمر، فأمر بالكتابة إليه) (ابن هارون، 1973) ولعلّ طول هذه الفقرة يرتبط بأهمية هذا الحدث في القصة، ودوره في تطوّر الأحداث وتناميها، فهو لبنة الأساس للأحداث اللاحقة، وهو بداية الصراع الرئيس في القصة.

أما الحوار - كما قلنا سابقاً - فكان هو السائد في القصة، وكان الحوار الخارجي هو الأبرز، والحوار الداخلي على بساطته وظّفه الكاتب لإبراز الجوانب الفكرية والفلسفية للشخصيات، فكان هو الأداة الفضلى لقراءة أفكار الشخصيات، مثال ذلك حوار الثعلب مع نفسه بعد أن دهمهم السيل: (استمسك فإنك مغدو بك، فأجاب نفسه عن نفسه: وكيف توقّى ظهر ما أنت راكبه؟ ثم تمثّل بأبيات لأمية بن أبي الصلت) (ابن هارون، 1973)، فهذا الحوار يبرز مواقف الثعلب الفكرية، ويكشف فلسفته في الحياة والموت، فالموت حتمي، ولا مفرّ منه. وقوله في مكان آخر من القصة: (إنما يُعرف فضل عقل المرء في شدائد الأمور ونوازل الخطوب، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم، والأحمق من العاقل، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل سائرة لنقصه عن زيادة العاقل، وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب، وليس لمثلي قوة على صيد الطباء وبقر الوحش، وإنما يصيد كل امرئ قدره وليس هاهنا إلا طلب الحيلة) (ابن هارون، 1973)، فهذا الحوار الذي أجراه الثعلب مع نفسه بعد لقائه الذئب، يكشف صفات الثعلب البارزة؛ كالذكاء، والدهاء، والحكمة في المواقف الصعبة، فالحيلة هي وسيلته للخلاص من هذا المأزق، فهو لا يستطيع صيد الطباء وبقر الوحش، ولا يوجد غيرها على الجزيرة أفيموت جوعاً؟! لا بدّ من حل، والخلاص هو اللجوء إلى الحيلة، وهذا يدلّ أيضاً على خبرته في الحياة، وسار الثعلب على درب الحيلة وحتى النهاية.

وأما الحوار الخارجي، فقد كان سائداً في القصة، وقد وظّفه الكاتب في أكثر من جانب، وظّفه لإبراز صفات المكان، من ذلك الحوار الذي دار بين الثعلب (مرزوق) وصديقه الثعلب (طارق)، قال طارق: (غير أنني أراك احتقرت جحر ك بمكان سوء، وإنه لأحق منزل بترك. فقال له مرزوق: يا أبا المغلس، وما الذي أنكرت عليّ فيه؟ فأنت من لا أتهم في عقله

أما بالنسبة للمكان في القصة، فهو غير محدد، فهو وادٍ في مجرى السيل بجانب البحر، خالي من السكان لا يقطنه إلا الثعلب مرزوق وزوجته، وجزيرة من جزائر البحر، مناهل الطباء... الخ، وكذلك الزمان فهو لم يحدد بدقة بعصر من العصور، أو بتاريخ ما، فالإشارات عنه كانت بسيطة مثل: في الليل، في اليوم التالي.

أما الأسلوب في القصة فهو سهل، ألفاظه واضحة بعيدة عن الغموض، وتركيبه بعيدة عن التكلف والتعقيد، ويرواح في الكلام بين السجع والترسل، والجمل في الغالب متوسطة الطول، ما خلا عبارات الحوار في نهاية القصة فقد مالت الجمل إلى القصر، وغدت بعض جمل الحوار أحياناً عبارة عن كلمة، وكثيراً ما يقتزن السجع بالتوازن، كما يبرز في النص الاقتباس من القرآن الكريم، وتضمين الشعر والأمثال.

توظيف السرد والحوار

راوح الكاتب في القصة بين السرد والحوار بنوعيه الداخلي والخارجي، لكن يغلب على القصة الحوار ويقلّ السرد، وإن بدا الحوار في كثير من الأحيان يتخذ طابعاً سردياً، ويتسم الحوار بالطرافة - غالباً - مما عمل على إبراز عنصر التشويق في القصة، بالتأزر مع ما يجري فيها من حيل وأفكار دقيقة نادرة، وعلى الرغم من قلة السرد مقارنة بالحوار في القصة إلا أنّه وُظف توظيفاً موفقاً، فقامت الفقرات السردية بإبراز صفات الشخصيات، من ذلك: (ذكر أنّ ثعلبا يقال له مرزوق ويكنى أبا الصباح أقام في وادٍ لم يكن به غيره، فعبر عليه زمان وهو في حسن الحال، آمن السرب، رخي البال، فمرّ به صديق له من الثعالب يقال له "طارق"، ويكنى أبا المغلس، فنزل عليه فأحسن ضيافته وأكرم مثواه) (ابن هارون، 1973)، فمن هذه الفقرة عرفنا حال الثعلب وبعض صفاته، وقدم لنا الكاتب شخصياته الأولى، الثعلب مرزوق، وزوجته، وصديقه طارق.

وظلّ السرد حاضراً في القصة على صورة وصلات قصيرة يقدّم بها الكاتب لعبارات الحوار بين الشخصيات، ويبرز من خلالها حال الشخصيات في المواقف الجديدة، من ذلك قوله في وصف حال الثعلب عندما حطّ على الجزيرة: (فأقبل وأدبر يومه لا يسمع حسيساً ولا يرى أنيساً، وأوحشه ذلك وظنّ أنّه هالك حتى أصبح، فبينما هو في تردده استقبله ذئب فسلم عليه وسأله عن اسمه وكنيته...) (ابن هارون، 1973). وقد يأتي السرد وصلات في أعقاب حوار خارجي، ليبرز حال الشخصيات بعد هذا الحوار، من ذلك: (فانصرف الثعلب حزينا مغتماً لما حزره من عداوة النمر، وعدم القوت...) (ابن هارون، 1973)، فأعجب الذئب كلامه، فأتى النمر، فشكر

الرسائل بكلمة والسلام، وهذا نمط للرسائل جميعها، إلا أن سهلاً هنا كتبها مختاراً لا مكلفاً من السلطان، لذلك جاءت أقرب إلى الأدبية منها إلى الديوانية، ولعله يقصد من هذه الرسائل لفت الأنظار إلى أهمية الترسل السياسي، وأثره في تطوير الأحداث، ليس على مستوى القصة فحسب، بل على صعيد الواقع الفعلي، فالرسائل تتفق والسياق التاريخي لزمن القصة.

ماذا يصور سهل في قصته؟

ومن ينعم النظر يبصر أن سهلاً يصور في قصته خروج الولاة على الخلفاء الشرعيين، واستبدادهم بالأمر دونهم، ضاربين غرض الحائط بالوعود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم، بعد أن تشدد عريكتهم، وتقوى شوكتهم؛ ابتغاء الانفصال عن سلطان الخليفة، وذلك بدوافع ذاتية كالطمع وسُكر السلطان، أو لمذاهب دينية خاصة، أو غير ذلك. وكثيراً ما خرج الولاة على الخلفاء في عصر سهل ابن هارون، وفي غيره أيضاً، فهو - إذاً - يجسد في قصته هذه واقعاً حياً عاشه ورآه رأي العين، فانعكس في أدبه بصورة تعليمية وفنية شائقة، وتتداخل الغاية التربوية والتعليمية مع السياسية والاجتماعية من خلال المواعظ والحكم والأمثال والوصايا والآراء الاجتماعية، والقضايا الأخلاقية والدينية التي يُشرب بها كتابه، وجاءت على لسان شخصيات القصة، وانبثت في تضاعيف الكتاب، لاسيما "الثعلب" الذي يمثل وجهة نظر الكاتب في سعيه إلى القيم المثالية والأخلاق السامية التي تسمو بالإنسان بعيداً عن سفساف الأمور.

وما كان لسهل أن يحقق هدفه هذا لولا هذا القلب الفني "القص على لسان الحيوان"، الذي اتخذته إطاراً يضمن له القول فيما يريد، وكأنه مجرد راوٍ يروي ما سمعه بحيادية، مستهلاً قصته بقوله: "ذكر أن"، وكأنها سند لروايته تكفل له تجنب المساءلة، هذا مع أن سهلاً في هذه القصة لا يخالف الخليفة الشرعي، أو ينتقص من قدره، بل هو حريص على السمع والطاعة، متأثراً بوجهة نظر قومه الفرس إلى الملوك، في أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم وأن طاعتهم واجبة⁽⁰⁾ (أومليل، 1996).

ولنا أن نسأل هنا ماذا تعكس القصة؟

تعكس القصة صورة سلبية للحكام ونظرة الناس إليهم في العصور القديمة، فهم مستبدون لا يبالون إلا بمجدهم، والولاة كذلك لا يفكرون في غير مصالحهم. أما الرعاية فهي ضائعة بين هؤلاء وأولئك، لا يفكر في أمرها أحد، ولا هي ترى لنفسها

ونصيحته لأهل مودته، فقال طارق: إني أراك في وادٍ عظيم، وبه من آثار السيل ما ترى، وما تدري ما يحدث، ولست آمن عليك أن يدهمك منه بالليل ما لا طاقة لك به (ابن هارون، 1973)، وأبرز بالحوار الخارجي حال الجزيرة وسكانها، مثال ذلك الحوار التالي بين الثعلب والذئب: استقبله ذئب قال: (اسمي) مكابر" وكنيتي "أبو الفراء"، فما أوقفك أيها الثعلب بهذه الجزيرة وليس لك فيها أكل؟، قال الذئب: إنه ليس بها إلا الأطباء وبقر الوحش. فقال له الثعلب: وما يمنعكم أن تصيدوها فأصيب من رسلكم؟ فقال الذئب: نحن هاهنا جماعة ما يتجرأ واحد منا أن يخرج من بابه شبراً واحداً، إنا لمن الهزل والضرب فيما ليس فيه خلق. قال له الثعلب: وما دهاكم؟ قال له الذئب: هاهنا نمر يقال له "المظفر بن منصور" قد تملك على هذه الجزيرة، وغلب عليها وهو من شرارته ويخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة النمر) (ابن هارون، 1973). وعمل الحوار الخارجي على كشف حال الشخصيات وتحولاتها النفسية، فكيف عرفنا عزم الذئب الانتفاض على النمر والخروج على طاعته؟ فهذا حوار يكشف ذلك: قال الثعلب: (إن الملك استبطأك فيما كنت وليت له إذ أخلفت له بوعدك، وأكذبت به حظك، فحركك بهذا الكتاب، ولئن لم تتدارك هذه الهفوة، وتتلاف هذه الزلة ليحلن الخطب ويعظم الأمر، وإن الرثيئة تقف الغضب. قال الذئب: أثرائني أمحض أمراً أغترب فيه عن وطني وأتعب فيه بدني، وأبيع له ديني، حتى إذا بلغ إياه، وانتهى منتهاه، أثرت بزيدته غيري، وأثقلت بوزره ظهري؟ كلا، فاكتب له جواب كتابه وبالحق فيه) (ابن هارون، 1973).

الرسائل في القصة

ولعل ما يستوقف الناظر في هذه القصة هو المزوجة بين السرد القصصي والترسل، إذ تحوي القصة ثماني رسائل متبادلة بين أبطال هذه القصة: الملك (النمر) والوالي (الذئب) وكان يكتب له رسائله وزيره (الثعلب)، وقد عُزي لسهل بن هارون ابتكار هذه المزوجة بين الترسل والسرد القصصي أو فعل القص (الفلاح، 2011). وللرسائل دور مهم في أحداث القصة؛ فظهورها كان مؤشراً لبدء الصراع في القصة - الصراع بين النمر والذئب - ويفصل بين بداية كل رسالة وبداية الرسالة التي تليها صفحتان اثنتان لا غير في كل الأحوال تقريباً. (ابن هارون، 1973) ويمكن اعتبارها نموذجاً فنياً للرسائل الديوانية التي كان يدبجها الكاتب وغيره في الدواوين يومئذ، وهي صدى لما كان يكتب في الدواوين في ذلك العصر؛ فقد افتتحت الرسائل جميعها بالبسملة، والصلاة على سيدنا محمد، أما بعد، ثم يبدأ بالموضوع مباشرة، وتختتم

أننا سعيًا لأن نقدّم قراءة جادة تناولت العديد من الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية في القصة.

وقد أبانت الدراسة أن هذا النص نص متميز في رموزه ومراميه، بالإضافة إلى غنى هذا النص بالدلالات والمضامين الرمزية المنبثقة من الواقع السياسي في عصر القصة.

وخرجت الدراسة بجملّة من النتائج نوجزها بما يأتي:

- هدف الكتاب عرض نموذج من الكتابة المترسّلة البليغة التي تدور حول الأدب والحروب والسياسة والحيل والأمثال والحكم.
- الأحداث في القصة تتسلسل تسلسلاً محكماً ترتبط برباط السببية، وهي تسير بخط مستقيم.
- الشخصيات في حقيقتها شخصيات إنسانية تتنفع بالشخصيات الحيوانية الرمز، فهذه الشخصيات لا تأخذ من الحيوان إلا الاسم (الرمز)، أمّا تصرفاتها وأعمالها فهي بشرية، والشخصيات في مجملها بعيدة عن التناقض، وتبدو منفصلة مع الأحداث.
- الأسلوب في القصة سهل، ألفاظه واضحة بعيدة عن الغموض، وتراكيبه بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- روح الكاتب في القصة بين السرد والحوار بنوعيه (الداخلي والخارجي)، ولكن يغلب على القصة الحوار ويقف السرد، وإن بدا الحوار في كثير من الأحيان يتّخذ طابعاً سردياً.
- زواج الكاتب بين السرد القصصي والترسل في خطوة رائدة، إذ تحوي القصة ثماني رسائل متبادلة بين أبطالها.
- الوظيفة السياسية للقصة واضحة من خلال الأحداث التي تسردها.
- صور سهل في القصة خروج الولاة على الخلفاء الشرعيين، واستبدادهم بالأمر دونهم، ضاربين عرض الحائط بالوعود والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم.
- عكست القصة صورة سلبية للحكام ونظرة الناس إليهم في العصور القديمة، فهم مستبدون لا يبالون إلا بمجدهم، والولاة كذلك لا يفكرون في غير مصالحهم، أمّا الرعية فهي ضائعة بين هؤلاء وأولئك.

حقاً عند أحد. **والرجل الحكيم** هو الذي يدور مع الزمان حيث دار، ويمثله **الثعلب** الذي ظلّ واقفاً إلى جانب الذئب ما بقي قوياً، فإذا ما قُتل لم يجد في نفسه حرجاً في أن يعرض نفسه على النمر، ثم يخدمه بعد ذلك بالهمة نفسها التي كان يخدم بها الذئب من قبل (ابن هارون، 1973).

ولعلنا لا نكون مخطئين إذا رأينا في الثعلب صورة لسهل بن هارون، (الذي كان يخدم البرامكة، فلما ضربهم الرشيد ضربته القاصمة تحوّل سهل يؤدي له نفس الخدمات التي كان يؤديها لهم، وينفس الحماسة والنشاط).

(عوض، 2002)

وفي الختام ما هدف سهل من قصته؟

من الواضح أن سهلاً أراد من قصته أن يقرّر الراعي والرعية معاً، فلا يجوز للسلطان أن يظلم ويطغى، ويقيد الحريات، كما لا يجوز للوالي أن يبطر النعمة ويتمرد على السلطان الشرعي، ويستبد بالأمر دونه. أمّا "الوزير" فينبغي له أن يقدّم النصيحة لأولي الأمر، ويضرب لهم الأمثال ليصون الحاكم من مغبة الضلال.

ومع أن سهلاً في قصته كان منحازاً إلى الحاكم الشرعي، إلا أنه لم يغفل نصحه، ولفت نظره إلى أمور دولته، فعليه ألا يتهاون في محاربة الخارجين عليه مهما كلفه ذلك من الأموال والأعباء، وأن يئد الفتن في مهدها قبل أن تستفحل ويصعب السيطرة عليها، (فإنّ السلطان لا يستكثر إنفاق مال عظيم على إصلاح الناحية اليسيرة، وما الصلاح في ذلك بخاص لناحية العدو دون سائر النواحي والأطراف، فإنّ أعناق أهل الفتن بكلّ ثغر خاضعة؛ ومتى رأوا سنة السلطان في من نبذ أمره جارية على ما أشار به الوزير من النظرة، مدّوا للفتنة أعناقهم، ووضعوا أقالق فرائض السلطان عن ظهورهم، وبسطوا أيديهم، واتصل لذلك ما لا صلاح معه في دين ولا دنيا...) (ابن هارون، 1973).

وبعد، فهذه قراءة في قصة "النمر والثعلب"، هذا النص الأدبي المفتوح والقابل لتعدد القراءات، ولا نزع أن هذه القراءة متميزة عن غيرها من القراءات التي دارت حول هذا النص، إلا

المصادر والمراجع

- مركز دراسات الوحدة العربية. ص 60-72.
- الجاحظ، ع. (د.ت) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر. 1/ ص 48-55.
- الحموي، يا. (1991) معجم الأدباء، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية. 1/ 266-267. 3 / 405.

- أمين، أ. (د.ت) ضحى الإسلام، ط 10 بيروت: دار الكتاب العربي. 1/ ص 212-222.
- أومليل، ع. (1996) السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1 بيروت:

- حميدة، ع. (د.ت) قصص الحيوان في الأدب العربي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص 38-45.
- خورشيد، ف. (1423هـ/ 2002) أدب الأسطورة عند العرب، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 284. ص 80-100.
- الدميري، (1994) حياة الحيوان، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ج1. ص 475-485.
- شلق، ع. (1992) مراحل تطور النثر العربي في نماذجه، ط1، بيروت: دار العلم للملايين. 1/ ص 220-285.
- الصفدي، ص. (1982) الوافي بالوفيات، باعتناء وداد القاضي، فرانز شتانيير بقيسيان: دار النشر. 16/ ص 18-20.
- صفوت، أ. (د.ت) جمهرة رسائل العرب في عصوره العربية الزاهرة، العصر العباسي الأول، بيروت: المكتبة العلمية. ص 280 - 289.
- ضيف، ش. (د.ت) العصر العباسي الأول، ط14، مصر: دار المعارف. ص 526-540.
- ابن عبد ربه، أ. (1361هـ/ 1942) العقد الفريد، شرحه وضبطه، أحمد أمين ورفيقاه، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ص 85-98.
- عوض، إ. (1427هـ/ 2006) سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب، فصول مترجمة ومؤلفة، القاهرة: المنار للطباعة والكمبيوتر. ص 60-85.
- الفلاح، ق. (1423هـ/ 2002) القصة على لسان الحيوان (كتاب النمر والثعلب) لسهل بن هارون نموذجاً، مجلة التراث العربي،
- العددان 86-87، دمشق: اتحاد الكتاب العرب. ص 245-270.
- _____. (2011) الأدب والسياسة قراءة في قصة (النمر والثعلب لسهل بن هارون ت215هـ)، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول + العدد الثاني، دمشق: جامعة دمشق. ص 75-102.
- الكتبي، ابن ش. (د.ت) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر. 2/ ص 84-85.
- ابن المقفع، ع. (1970) المجموعة الكاملة، دراسة وتحليل، ط4 بيروت: دار البيان، ودار القاموس. ص
- ابن نباته المصري، ج. (1383هـ/ 1964) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار الفكر العربي. ص 240 - 246.
- النجار، م. (1995) حكايات الحيوان في التراث العربي، مجلة عالم الفكر، المجلد 24، العددان الأول والثاني، الكويت. ص 175-198.
- ابن النديم، م. (1996) الفهرست، شرحه وضبطه يوسف علي الطويل، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية. ص 120-135.
- ابن هارون، س. (1973) كتاب النمر والثعلب، حققه وقدم له وترجمه إلى الفرنسية عبد القادر المهيري، تونس: منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ص 5-79.
- هلال، م. (1981) الأدب المقارن، بيروت: دار العودة، دار الثقافة. ص 145-160.

A Study of the “The Tiger and The Fox” Book BY Sahl Bin Haroon(215 AH)

*Insaf Mohammed Al- Momani**

ABSTRACT

This Study investigates “The Tiger and the Fox” by the writer “sahl bin haroon -215 AH”

This book has to be conceded as a unique model of prosedy writing by the name of animals languages, which stayed for a long of time until it was found by Dr Abdul kader Al Mouhari in the late of the seventeenth of the last century.

This study is seeking for new presentation to this story, trying to find out the main different motives and impacts that were behind of producing it.

Keywords: Sahl Bin Haroon, Book, the Tiger and the Fox.

* Irbid University College, Al-Balqa Applied University, Jordan. Received on 6/4/2015 and Accepted for Publication on 14/10/2015.